

## عندما تبكى الطفولة في سوريا

بقلم: أحمد عمران

ليس أصعب على الإنسان من رؤية فلذة كبده تنتزع منه انتزاعًا بعد أن كانت تروح وتغدو أمامه وتملأ حياته بهجة وسرورا. وعندما تُغتال أحلام المرء بفلذة الكبد وثمره الفؤاد، لا يسكن القلب سوى حرّة ولوعة تدميه ولا تغادره ما دام نابضًا. وتزداد اللوعة والحرّة في قلب المرء حين يقتل ولده بوحشية وبربرية على نحو ما نرى ليل نهار في شام العز والصمود وعلى مسمع ومرأى من العالم كله دونما مغيث أو مجير.

ولست بصدد الحديث في هذه السطور عن أب مكلوم أو أم تكلّى، وإنما عن طفل من مخيمات الفلسطينيين بدرعا، أدمى قلبه وانهمرت دموعه كمدًا لفقد أخته وهي ملقاة على الأرض مسجاة في كفن وقد اخترقت وجهها البريء رصاصة غدر وظلم أردتها جثة هادمة لا حراك فيها. أه على هذا الطفل الذي يبكي أخته التي تقاربه في العمر بعد أن شاطرته جل أيام حياته، وقد أعدوها لتحمل على الأكتاف لا يقصدون بذلك إلا أن يحولوا بينه وبينها ويتركونه يعاني لوعة فراقها ما دام حيا ولسان حاله يقول: "ستر السنّا وتحجبت شمس الضحى، وتغيّبت بعد الظهور بدور، ومضى الذي أهوى وجر عني الأسى، وغدت بقلبي جذوة وسعير".

لا شك أن هذا الطفل لحظة انهماره في البكاء قد استدعى إلى ذاكرته الذكريات والآمال التي شاركها مع أخته الحبيبة، وربما تذكر أحلامهما في أن يعيشا حياة كريمة في كنف أبيهما وأمهما وفي وطن يصون آدمية الإنسان ويكفل له حياة كريمة، وربما جال بمخيلته ضحكات أخته وابتساماتها وأوقات مرحهما ولعبهما، ثم أفزع هذا الطفل أن يرى هذه الأمانى وتلك الأحلام وقد ذهب أدراج الرياح فإذا به ينخرط في نوبة إنشاد مغلفة بالحسرة والكد أبكت كل من شاهده ممن لا يزال لديه ضمير حي وزادت من فجيعة أقربائه ممن أفزعهم ذات المشهد.

جاء اغتيال هذه البراءة الطفولية ليسطر صفحة جديدة من تاريخ الجهاد الذي يخوضه أطفال الشام المقهورون ضد نظام بربري وحشي لا يعرف خلقًا ولا دينًا فهو يبئد الأبرياء العزل بكل ما أوتي من قوة في معركة غير متكافئة بالمرّة. هذا الجهاد الطفولي سطره بدمائه الزكية حمزة الخطيب مرورًا بهاجر الخطيب وعمار طفل الحراك بدرعا الذي فقد يده ورجله وأخيرًا وليس آخرًا الطفلة سعدة التي نحن بصدد الحديث عنها. وأمام مشهد القتل البشع وأمام مشاهد الطفولة المنهارة، يجلس العالم الإسلامي والعربي برمته دون حراك ليشرّب دموع الأطفال والأرامل والثكالى، ولا

ينتفض أبنائه لنصرة هؤلاء المقهورين، عملا بتعاليم دينهم العظيم، ولربما جلسوا أمام مقطع مؤثر مثل هذا واعتصروا ألمًا لبعض الوقت إلى أن تأتي فجيحة أخرى تنسيهم ما تقدمها وهكذا.

لا شك أن ما يعيشه أطفال سوريا خاصة والشعب بوجه عام يعد مأساة بكل المقاييس، ولا شك أن ذكريات هذه المأساة ستظل ملتصقة بأذهان كل من عايشها واكتوى بنارها، مأساة سيحملها الأطفال اليتامى والنساء الثكالى والرجال المكلمون والأسر التي شردت عن ديارها وقراها ومدنها وسيروونها للأجيال القادمة وستسطرها صفحات التاريخ الشريفة قصص كفاح ونضال وآلام وأحزان خاضها أهل الشام في ظل خذلان العالم أجمع لهم وتقاعس الجميع عن رد الظلم عنهم، فيما خلا رب العالمين الذي سينصرهم ويخذل الطغاة المستبدين ولو بعد حين. أما هذا الشعب المقهور فلا أملك إلا أن أستمر في الدعاء له أن يفرج الله كربته وأقول لأبنائه: جدّوا أنتم، فإن من تطلبون منهم العون والغوث هازلون.

والآن أترككم مع مقطع الفيديو:

[http://www.youtube.com/watch?feature=player\\_embedded&v=dVWb8K8YD3I](http://www.youtube.com/watch?feature=player_embedded&v=dVWb8K8YD3I)